فضيلة الحوار

نعود مرةً أخرى للصغيرة الجميلة، وأسئلتها الغريبة المشدوهة وحدقاتها المتطلعة إلى آفاق المعرفة.. تسع الكون والوجود وقصة خلق الإنسان.

أطفال عصريون - ليسوا مثلنا - وكما يصفنا شاعر منا معذب مهجور - ومثلى منفى على الورق - «أتذكرين .. سعداء كنا قانعين بذلك القصص الحزين».

أطفالنا يريدون ليعرفوا فى بداياتهم منشأ الكون، وأصل الأشياء جميعًا .. وجواب الأسئلة الخالدة دفعةً واحدة .. كيف ولماذا ولم ؟

فى هذه المرة - لم تأخذنى الصغيرة على غرّة - أنا التى استدرجتها، وشددت انتباهها يمكننا التعلّم كثيرًا فى مدرسة الطفولة

النضرة، وننهل من نبع النقاء والطهارة والفطرة السليمة.

يخطئ من يستهين بالطفل.. يعبره ككائن صغير، فهو إنسان فى مشرقه إنسان المستقبل.

يجب معاملته باحترام واجب وتقدير عميق.. ورؤية مستقبلية لتطور حياتنا.. والطفل إنسان كبير لأنه برىء حرّ.. نقىّ، ومترع بالوعد.

لأنه كلمة الله وفطرته السليمة لخلقه، والقدرة المبدعة لقوى الفهم والعقل والاكتشاف.. وليظهر حكمة الله فينا.

صغيرتى أجرّب معها الطريقة التى اكتشفتها أو التى ساعدتنى هى على اكتشافها.. أجيب عن سؤالها بأقصى ما وصلت إليه من إجابة.

آخر ما عرفته عن طريق العلم والفلسفة وهداية الأديان.. إجابة بارقة جريئة.. غير مبتورة ولا مرتعدة أو واجفة، والغريب أنها ترضى، وتقتنع وكأنها وجدت ما تبغى.. وتلك أيضاً وسيلتها إلى المعرفة! حتى لتبهرنى ماذا يمكن أن يدور بعقلها؟.

ماذا يعتمل فى الداخل تماماً؟

يبدو أن هؤلاء الصغار العظام قد أتوا إلى العالم مزوّدين بقدرة فائقة على التعلّم والاستيعاب، بفطرة سليمة ترنو إلى الأسماء كلّها والمسمّيات كما علمها الله لأوّل خلقه آدم عليه السلام.

وليعيدوا مجد الإنسان على الأرض.. الخلافة.. وليهبوا الحياة

بهاءً وجمالاً.

فى هذه المرّة أنا التى دعوت الصغيرة إلى الحوار والجدل.. كنت فى حاجة لأن أثير معها كلّ الأسئلة المتأجّجة.

تعالى يا بنتى وشاركينى المتعة المقدسة.. نستعين على الحياة بالصبر والسؤال.. نرفع وجهنا وأكفّنا إلى السماء وندعو.. وسنجد برهان ربى حاضرًا.. سلى ما شئت.. وستجدينى إن شاء الله من الصابرين.

«أقرأ» لك.. يحدثنا الله العظيم فى كتابه.. ينير لنا الطريق.. ويثبت أقدامنا.. تعالى نكمل قصتنا المجيدة.

- كنت والحق يقال أريد أن أصل إلى «إبليس اللعين» - أصْل الشرور والمعصية - حسبت أنها تتوقف بلا شكّ أمام ذلك الآبق المتمرد، حين أبى واستكبر؛ وتسنح الفرصة لأن أحذّرها منه.. وألا تخضع لوسوسة الشيطان - من الجنّة والناس - وأعلمها كيف يقوم ناس بعمل الشيطان وينشرون الغواية والضلال.. كان هذا ظنّى أو حسن ظنّى بها.

وما أن تلوت: ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إنّى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾.

ولم تدعنى أكمل:

انقضّت علىّ مستهولةً: (وهل يقدر الملائكة على معارضة الله هكذا؟) سبحان الله عمّا يصفون! وفتحت أمامى ساحة الدهشة

والتعجب والسؤال الاستنكارى الغريب.

وفتح الله علينا بمثال مبسط .. يوجد أب جليل مهيب نعرف عنه الحكمة والعدالة .. تصرّف فى أمر على نحو ما .. قد يبدو وقعه غريبًا ومثيرًا للحيرة .. ربّما عجز الأبناء عن معرفة الحكمة فيه .. وربما منعهم الأدب والحياء من السؤال. ويدرك الأب الحنون حيرتهم - حتى ولو لم يفصحوا عنها - ويأتيهم عطوفًا متفهّمًا.

يحكي لهم الحكمة من وراء تصرفه وموقفه. يمكن بدء حديثه من قاعدة أنهم ألقوا السؤال فعلًا، وخاضوا فى العجب الذى استولى عليهم.. ثم يتولّى المسألة بالشرح والتحليل وبيان ما غمض عليهم.

الله العلى القدير ضرب لنا ذلك المثل من الحوار والمناظرة ليجسّم لنا المعنى ويجعلنا ندركه فى صورة محسوسة.

والله فى عظمته وجلاله يرتضى منا السؤال دومًا ويفترضه.. ويدعونا إليه ويقدّم لنا الدليل والبرهان حتى تطمئن قلوبنا.

وكلما أنصتنا له فى كتابه العزيز، نجده يدير معنا حوارًا باهرًا يدعونا للتأمل والتفكير وإعمال عقولنا، والارتفاع إلى نوره.

حتى لقد رفع موسى إلى مستوى الحوار المباشر معه.. واجتاح الشوق موسى وهتف: ربى دعنى أراك.

ويحدد للنبى الإجابة السامية.. يسألونك.. قل والله هو القائل القادر.. وليس كمثله شىء، عندما تستبدّ بنا الحيرة نتطلع إليه.

هو يريد إخبارنا بالمعنى الكامن من وراء هذه القصة بالهدف العظيم .. علوّ مكانة الإنسان .. وتفضيله .. وخلافته فى الأرض .. حتى إن الملائكة النورانية المطهرة ليأخذها العجب من هذه المكانة وتودّ بيان حكمته .

ويحسم الله الأمر كله بـ (إنّى أعلم مالا تعلمون) جواب مقنع .. وإثبات لعلم الإنسان وميزته .

كان من الحكمة تجسيد الصورة على هذا النحو الدرامى .. ونموّ الفعل المباشر ، فيه نموًّا عضويًّا على هيئة « حوار » ليصبح بمثابة تيّار من الوعى يمسّ منا الفكر والوجدان لنغوص وراء المعنى ، ولنتبين إمكانية أن نحقق السموّ والارتقاء .

الله خلق الإنسان ، ويعلم حقيقته .. تلك الروح المتأججة لديه فى البحث والمعرفة .. يطلب منه أن يتدرّب على الحوار والتفكير .. حتى يصل إلى يقين ويضرب مثلاً للرسول أن يصبر على جدل المشركين ونقاشهم .

إنه الدرس العظيم يعلمه الله لنا .. نتمسّك بحرية التفكير .. والتعبير حتى فى شئون الكون والخلق .

بدأت حوارًا مع نفسى .. حقا العقل والكلمات هى الميزة والحرية والمسئولية .. هو الذى يصل بنا إلى الله .. إلى الإيمان .. يرفعنا سبحانه – رب العزة – إلى مستوى الحوار معه .. فكيف نلغى ذلك الجزء المقدس من خلقنا ، أو يسلبه أحد منا ؟ كذلك خلق الله

الإنسان ناطقًا وقال له « اقرأ » .. وتعلم بالقلم وعلّمه ما لم يعلم .. المسيح كلمة الله ، وموسى كليم الله ، ومحمد معجزته القرآن « كلام الله » ولابدّ من الحوار.

الحوار مع نفسك ، وبينك والآخرين .. ومع الله وأنت تقرأ كتابه المجيد .. هكذا فضّلك وخلقك ، وجعلك خليفةً . لا تطفئ ذلك النور أبداً ، بذلك تكون قد أثمت وضللت ومن الهالكين ولا تدع الظالمين ليريدوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

إذا كان الله العظيم يثير فينا حوارًا ، ويعلّمنا أدبه ويدرّبنا عليه ويأخذ بيدناإلى نور الهداية بسوق الحجة والأدلة والبراهين .. فكيف لا ندير حوارًا مع من يتولّون أمرنا ؟ .

كيف لأناس تجبّروا وعتوا .. لا يريدون لصوت أن يرتفع ؟ يرفضون ما أحلّه الله لنا .. ما كرمنا به .

الحاكم المستبد يفرض الصمت والخوف .. يمقت كلّ الأسئلة .. يسمع صوت نفسه خضوعًا وذلّة .. تتولّى العزف جوقة المرائين والمداحين والمتزلّفين .. يتقيئون نشيدًا واحدًا .. مهانة وخذلان .. توقّف الحوار الخصب .. تحرّقت العقول .. وتصبح أمة من الهالكين.

الحاكم المستنير ، بالحوار يهتدى .. يستمع إلى صوت شعبه .. حديث البسطاء ، ينصت إلى غضبتهم .. ألمهم .. حيرتهم ، قلقهم .. يدير حوارًا مباشرًا مع الجماهير ..

خلال الحوار تتضح كثيرٌ من الحقائق.. من الأخطاء.. تبرق فكرة جديدة.. تنطلق تلك الشرارة المقدسة ويهتدى القوم إلى الصراط المستقيم.

قولاً ليِّناً

١

(هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوًى. اذهب إلى فرعون إنه طغى)

تعالوا نتأملَ واحدًا من المواقف المشحونة فى قصة موسى عليه السلام.

أرسله الله (إلى فرعون وَمَلَئِهِ إنهم كانوا قومًا فاسقين)

حدث التكليف الإلهى، ونودى فى الوادى المقدس .. فى البقعة المباركة من الشجرة (ياموسى إنى أنا ربك ..)، (وأنا اخترتك).

آنسه الله .. وطمأن قلبه .. وأنزل السكينة على نفسه – أقبل ولا تخف إنك من الآمنين – واستجاب الله لطلبه ورجائه – أعطاه

سؤله – وبعث معه هارون أخاه يشد به أزره، ويشركه فى أمره، ويسانده فى العمل العظيم..

وأفاض الله عليه من نوره وحضوره.. ووعده – ووعد الله حق – أنه سيكون معهما « حاضرًا » يسمع ويرى، وأكد له أنه الأعلى، وهو منجيه ومؤيّده بنصره.. وكل ما سيلقونه أمامه من سحر (إن الله سيبطله)

ترفقّ به المولى عزّ وجلّ وكلّمه – بصيغة المستقبل – المفعمة بالأمل والنور وروعة التجلى والفوز الأكيد.

« سيبطل » كلّ فنون خداعهم وسحرهم، ومكر السوء لديهم؛ فى ذلك الحرف « س » تكمن المعجزة، والقدرة.. والرضوان، وشفافية الرؤية حتى المستقبل.. وإلى الدرجات العلا

٢

وتأكيد للغلبة والعزّة والنجاة وهى حق لدى الله لرسله والمؤمنين.

صيغة تضمّ الزمن جميعًا، وتجعله « حاضرًا »

تمتدّ الرؤى بين الماضى والحاضر، وتبحر إلى أفق المستقبل البعيد والقريب.

الله سبحانه وتعالى يعلم أن لا فائدة ترجى من هداية فرعون.. ويعلم أنه لن يهتدى أو يلين فله قلب جبّار عنيد، وهو الذى وصفه بقوله:

(إن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين)
ومع ذلك طلب من موسى وهارون أن يقولا له (قولاً ليّناً) .
يوفد رسوله إلى طاغية مستكبر ومن المفسدين .. ومع ذلك تصدر له الأوامر أن « يصير الحديث بالرفق واللين ، وعذوبة المنطق ، وتبيان الأدلة والبراهين » !
بل يمدّه بأصول ونماذج لأسلوب الحديث ، وصيغة الحوار المتزن الرصين .
(فقل هل لك إلى أن تزكّى . وأهديك إلى ربك فتخشى) .
(قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) (الله الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماءً) .
كان يعلم سبحانه وتعالى أنه لن يستجيب .. سيدبر وينفر .. ويزداد غلاً ومقتاً .. سيزين لنفسه سوء عمله ، ويصدّ عن السبيل ..
سيجمع حوله الحشود ،وينادي بأعلى صوته ، ويجهر بالسوء ..
بل ، ولقد تقرر مصيره وتحدّد ، كتب الله أن سيجعله عبرةً للعالمين ..
إلاّ أن ما يهمّ حقًّا هو هذا الدرس العظيم من أدب الحوار ، وفن التعامل ..
وطريقه الأخذ والرد ، واستخدام كافة السبل والوسائل

المشروعة فى طريق الجهاد .. علم وفن تأخذه من القصص المحكم .. وفصلت لنا آياته .. وتبهرنا معانيه : تدريب على اللياقة النفسية والذهنية لتحمل المسئولية ، وحمل الرسالة ..

تعليم للنبىّ وللولىّ ، وللإنسان العادى كيف يضع المبادئ والقيم موضع التطبيق . يصير هو وأسلوبه شيئًا واحدًا .. هو والدعوة الحق كيانًا واحدًا ..

لا انفصال شبكى بين ما نؤمن به ، وطريقة سلوكنا .. وأسلوب تعاملنا مع الآخرين . غرس للأسس الأصيلة فى مسيرة الجهاد .. والالتزام بالحق ، واختيار موقف العدل والحب من أجل الجميع .

٣

فن إقامة الدين ، والالتزام بهؤلاء الكلمات من عند الله . وذلك ابتداء من المحاورة إلى التفاوض ، وحتى القتال فى سبيل الله .

يكون الإنسان فائقًا مهذبًا مهابا حكيمًا .

المسيح عليه السلام كان يذكر الحواريين كثيرًا : « لقد بعثت لخطائين ، لا بررة » الوسيلة يجب أن تكون سليمة وناصعة كنبل الغاية .

استقامة الأسلوب والتصرف ، وهداية إلى الطيب من القول ..

وحتى يكون الرسول نفسه آيةً ومثالاً على الصبر ، وقدرة التحمل ..

فن التعامل وإدارة الحديث وتوجيه الرأى وقيادته ، والقول المدعم دائمًا بالحجة والبرهان والدليل . الله الرحيم .. الودود .. يقول لموسى :

(وألقيت عليك محبّة منى ولتصنع على عينى) .

صاغه القدير بالحب ، وصنعه على عينه ، وحلّ عقدة لسانه .. وأطلقه بالقول الحسن المترفق - برغم غلظة ووعورة الآخرين -

وهو تعليم لنا أيضا - تهذيب وتثقيف - نحن المخاطبين بالقرآن ؛ وتدريب عملى لنا وخبرة فى فن التعامل والدعوة .

بوسعنا أن تشملنا المحبة الربانية ، ويشعّ داخلنا وحولنا النور الإلهى ونكون بأعينه تغمرنا محبته ، يمكن بها أن نصوغ أنفسنا من جديد ، ونستلهم مواقف القرآن .. نتمثل مواقف الأنبياء والثوّار والصالحين ..

الإسلام والدين يجب أن يهذب ، منا المشاعر والنطق ، ويحكم حركة اللسان وأى كلمة تخرج من أفواهنا ..

يجب أن يوجد فرق جوهرى بين حديث المؤمن وعبارات أى مأفون غرور . هذا الفاصل تتوقّف لديه دائمًا الحشود السابقة والحاضرة تتأمل وتفكر وتتخذ موقفًا .

يجب ألّا يفرض خصمك عليك أسلوبه ، وتبرّر لنفسك أنه قد

بدأ ولم يكن أمامك إلاّ أن تجاريه .. إنك بذلك تخسر ، ويجرّك معه إلى الخطأ ..

المواجهة تكون بالحجّة والمنطق وقول الصدق والحق .

٤

وبذلك تثبت عجزه وهوانه ، ويبقى مدحورًا مخذولا .

الداعية يجب أن يتحلّى بالقول الحسن ، وطيب الكلام وصبر الإقناع ، وصدق الحديث .

إن القسوة والغلظة تنفّر الناس وتقطع الطريق على من يريد التعلّم والمعرفة .

لكن الكلمة الطيبة الحانية تجد سبيلها إلى القلب ، وإلى شغاف العقل ، وتعمل عملها فى النفس ..

لا شك أنها مناورة سياسية بارعة ، أن تناقش أو تفاوض عدوًّا مقيتًا ، وخصمًا عنيدًا تعرف مسبقًا أنه لن يستجيب .. ولا يلين أو يستجيب لداعى الحق .. ومع ذلك تفنّد دعواه ، وتدعوه إلى التعقّل والتدبّر وإعمال الفكر .

إن ذلك فى حدّ ذاته يجعله محاصرًا ، يحدّد دائرة وجوده وأفعاله . ويبعد عن كلّ من كان يتبعه وهو فى غفلة من أمره .. أو لا يحيط بأبعاد أهدافه ، ويعود إلى الصواب إلى جانب الحق .

لا يهم أن يقتنع فرعون ومن معه ولكن هذا الأسلوب فى الدعوة يفيد قومًا آخرين، وينمى لديهم تلك العادة المفيدة لتشغيل عقولهم، وتبيّن مواقعهم، وتوضيح وجهة النظر التى منها يطلّون على الموقف وعلى الحياة ذاتها.

تدريب فائق على المستوى الفردى والعام.

إذا كنت «فردًا» وتتعرض للمواجهة مع قوى عاتية.. أو للشهادة وقول الحق، أو كنت ضمن جماعة تدافع عن قضية مبدأ.. أو تدخل فى عملية نضال مفتوح.

إن هذا الأسلوب يجعلنا نحسّ بالعزّة والثقة وصلابة الإيمان. من تحليل الموقف ذاته، يمكننا الوصول إلى نتيجة باهرة..

ندخل فى مباحثات أو أى نوع من المفاوضات ونكون قد أعددنا لكل أمر عدّته، وأخذنا استعدادنا للخطوة التالية، ونضع تصورا حقيقيًا لما يمكن أن تتطرّق إليه أبعاد القضية.

نتفاوض بالكلمات والأدلّة.. والصكوك المثبتة والمشروعة.. ويدنا على السلاح ربما.. وقد خططّنا لنهاية المسرحية وأعددنا المفاجأة اللازمة إذا لم تسر الأمور فى خطّها المستقيم.

أسلوب علّمه لنا الله..

بالحب والودّ واللين إن أمكن؛ وبالقتال والاستشهاد إن لزم..

٥

ذلك أنا تعلمنا ألّا نيأس ولا نفرّط: وكيف نصابر ونتذرّع بالصبر عن ثقة ويقين أن المؤمنين والمتّقين هم الغلبة والعزّة، والله يؤيدهم بنصره ويمدهم بأسباب الفوز المبين.

هو الذى يعلّمنا ويدرّبنا فى مدرسة الجهاد الأعظم؛ ويصوغنا بكلماته.. يجعلنا « بأعينه ».. ويلطف بنا ويقصّ علينا من أنباء الرسل والأقوام الغابرين، ومسيرة المجاهدين.. ويضرب الأمثال ليهدينا إلى صراط مستقيم.

ربما عندما تحاور عدوًّا، وصوتك هادىء وكلماتك يسيرة والثقة والاعتزاز تقطر مع منطقك.. وقولك عليه ليّنًا ربما تكشفه – وعلى الملأ – وتبدى أساليبه، وتحاط الناس علمًا بما يمكر، وبما يخفى من سوء.

وقد تكتشفه أنت أيضًا، وتعرف عنه المزيد.

يمكن من محاورته، والمباحثات معه تحديد نقاط الضعف لديه.. والنفاذ إلى أصل الصلف والاستعلاء والغرور..

ومن أسلوبه فى التفاوض تعلم طريقة تفكيره وما عساه يفعل، وقد تجرى تعديلاً لخططك ومشاريع المستقبل لديك بناءً على ذلك..

وقد يكون الأمر « تقية » تتقى شره.. حتى يكمل استعدادك،

وتحسم أمرك وتحوّل ميزان القوى إلى جانبك..

وفى زمن الحوار والصراع الجدلى يمكن أن تتصاعد بمدّاتك وعددك وتجمع له..

إنه عطاء ونور وفيض من الله وبشرى لنا..

تدريب على العمل الصالح، وحسن الأداء..

هو زادٌ لنا جميعًا.. سلاح وعتاد وحصن سلامة..

محبةٌ غامرة وثراءٌ روحى وفكرىّ.

الله يعلّم نبيه الكتاب والحكمة. ويعدّه للمسئولية العظمى والاستعداد للنضال وسط قوم هم أهل لجج ومحاجاة..

ويعلّمنا الكتاب والحكمة مع الأنبياء والمختارين من الرسل.. ندرك أننا فى كل أمورنا، وحركة حياتنا واتجاه أعمالنا يجب أن نقيس بمقياس الدين، وننهج تبعًا لذلك المنهج القويم فى حياتنا العامة والخاصة، وذلك هو الفوز العظيم.

إنّى نذرت للرحمن صومًا

١

يحدث أحيانًا أن تشعر بحاجتك إلى الصمت .. الصوم.

تريد لتكسر دوّامة الكلام التى لا تنتهى، وتوقف طوفان الكلمات ..

لحظات تأمل خلّاقة ومبدعة، تنصت فيها لذاتك التى هى نفخة قدسية من روح الله .. تتصل بذلك الحوار الداخلى، وتغتسل بالنور النابع من الأعماق ..

تقعد فى معزل، أوتتّخذ مكانًا قصيًّا .. وجهتك إلى الله .. تهاجر فيه وتتلمس حكمة الأشياء والأحداث ..

بعدها تطلع على العالم، وتواجه الدنيا بأسرها .. قويًّا معافىً تحدّد رأيك .. وتتّخذ موقفًا، وتتواصل مع دائرة الحوار العام من جديد.

وقد تشاركك الطبيعة ذاتها فتبكى معك أو تثور، وتعود لتحسّ أنك جزء من هذا العالم البديع الصنع.. عافيتك أن تسلم وجهك لله.. وتوقن بالنصر والنجاة.. مادمت مستقيمًا وملتزمًا بالحق..

وآيتك أن الشمس دائما تعود لتشرق من جديد..

وقد تقع المعجزة وتجد برهان ربك حاضرًا.. وتصل إلى البصيرة ووضوح الرؤية والحكمة.

وأخذت أتلو القرآن.. فيه شفاء وهدى..

(وتبياناً لكلّ شيء) هكذا قال عنه من أنزله - ولنجعله فرقانًا ومخرجًا..

ولنقيم بيننا - وبين الذين لا يؤمنون - حجابًا مستورًا.

ووجدتنى أتوقّف عن التلاوة.. وتأخذنى المفاجأة؛ ومضت الفكرة فى ذهنى بسرعة.. ها هى الآية معجزة مبهرة وحاضرة.. يعلّمنا الله بها، وقد علّمها من قبل أمّنا مريم - العذراء البتول - التى طهرها واصطفاها على نساء العالمين..

٢

قولى: (إنى نذرت للرحمن صومًا)

ونزلت علىّ الآية بردًا وسلامًا..

« الصوم عن الكلام » من التدريبات الدينية والروحية الملهمة..

شفاء للنفس .. وصفاء للذهن .. وشحن للإرادة ..

أعلمنا الله بهذه « الفضيلة » وفاعليتها .. والصياغة الجديدة التى تلفنا باتباعها .. « لحظة زمن » يتعلّم فيها الإنسان شجاعة الصمود أمام حدّة الافتراء .. والجذل المهين ويجعل الحقائق تنطق بذاتها .. وتفحم جهر السوء، وسقط الكلام.

كنت أمام - محنة مزلزلة - ليست من قبيل الابتلاء بنقص فى الأموال أو الأنفس ..

ولكنها من نوع - المصائب المصنوعة .. والشراك الموضوعة ..

وليتسلّى بك - بعضٌ ولّاهم الله أمرنا - ويجعلونك « فرجة » لهم ومادة عبث وسخرية كما حدث وقذف بالثوار، ومن قالوا ربنا الله إلى الأسود الجائعة ..

وكانت مهرجانات واحتفالات للأباطرة والقياصرة، والمستكبرين - منذ العصور الغابرة - الطغاة السابقون والمحدثون قد يكونون بلا موهبة .. إلّا مكر السوء .. والتفنن فى التعذيب وقهر القلّة المؤمنة ..

وتتوالى فنون الكهنة والسحرة بتوالى العصور والأزمان ..

« نصب الفخ » وانتظروا كيف يكون البكاء .. والعذاب .. وحرقة النداء والألم .. أمام الامتحان - « تذكرنا » .. لنبصر بعد المسألة .

وجاءتنا الآية مشعة موحيةً .

(فإمّا ترينَّ من البشر أحدًا فقولى إنّى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلّم اليوم إنسيًّا) وما تساوى « عذاباتنا » أمام ابتلاء الرسل والأنبياء .. والشهداء وأولياء الله الصالحين .. !

٣

شملتّنى العزّة .. وغمرتنى المحبة وحصنتنى الثقة ..

وتأسّيًا - بأم النور - نذرت للرحمن صومًا ..

لا .. لم تستبد بى المخاوف .. ولم تأخذنى المفاجأة ، لا صراخ ولا عويل ..

ولم نسع إليهم ونتضرع لهم .. لا لم تختل حركتنا أو انعدم الوزن لكياننا . ولمّا بدأ العرض المثير .. وجدوا منا صوماً وصمتاً ، وثباتاً ..

رفعتنا المناجاة إلى رحاب أعلى ، وتعلّقنا بمدد السماء .. ولم ننزل إلى حمّى الجدل والدفاع ..

وهكذا صرف الله عنّا كيدهم ، وجعلهم فى الأذّلين والأخسرين .

تبدّدت الخطة .. وخاب هدفها .. وسارت الأمور - على غير ما توقعوا - وذهبت ريحهم .

« الصوم عن الكلام » تدريب باهر حقًّا

أعلمنا الله بهذه الوسيلة ، وجرّبها أمامنا وأوردها لنا كأسلوب ناجع ودواء لأعتى المعضلات .

« هدنة مؤقتة يهذّب فيها المرء جوارحه .. ويستجمع نفسه . ويتأمل حقيقة الحدث . ويطهر « نطقه » ومنطقه ..

لمواجهة المحاجاة الظالمة - والذين يلوون ألسنتهم بغير الحق - ويلبسون الحق بالباطل ..

(فقولى إنى نذرت للرحمن صوما) .

هكذا قال الله لمريم - التى جعلها الله وابنها آيتين ..

أعلمها بما تقول وتفعل فى حدّة الأزمة ، وذروة الموقف المهيب .. وابتلاء المحنة ..

لقّنها ماذا يكون تصرّفها وسلوكها ، وجعلها أمامنا آيةً ونورًا .. وهدايةً للسلوك الصحيح ..

ماذا تقول حقًا عندما يسعى إليها القوم مستنكرين .. ويخوضون فى حديث جارح ومهين .. ؟

٤

بل وتنطّع كثيرون .. ويا أخت هارون .. لقد جئت شيئًا فريًّا ..

(ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا).

ستسمع العذراء الطاهرة التى نذرتها أمها لخدمة الله ، المتبتّلة لربها .

ستسمع العبارات الجارحة .. والإيماءات القبيحة .

فلما أحست بما ينتظرها - تمنّت الموت - قبل أن يحدث لها

هذا .. ولو أنها كانت نسيًا منسيًّا ..

فعلّمها ربها - ونحن معها - نسمع ونرى ..

ودرّبها لرسالتها النبيلة .. وأحسن إعدادها لتحمل تبعة الجهاد فى سبيل الله ، فقرّت عينها وهدأت نفسها ..

وألجمت القوم عنها ..

(إنى نذرت للرحمن صومًا) .

تصوم لله ، والله بالغ أمره .. وفعّال لما يريد .. وجاعل للمسيح آية ومعجزة تتّخذ موقفا جليلاً ومهيبًا ؛ وهكذا جعل الله لها فرجًا ومخرجًا .

تصرّف يتّسم بالرفعة والسمو « وهو من عند الله » .

وسلوك يترفّع عن اللغو والتجريح .. لن تكون طرفا فى جدل سقيم .

ولا محاجاة ظالمة ..

المفاجأة التى أعدتها لهم وستفتّ فى عضدهم .

علوّها وثباتها .. وصمتها وصومها ..

وبذلك تصدّ جحافل الظلام ونعيق البوم .. وتسقط أعلام الاتهام .

وتوقف نزيف الكلمات البغيضة فى حلوقهم .

ماذا يفعلون أمام الصمت والصوم .

يزعقون حينًا .. يكررون ما يقولون .. وفجأةً ترتدّ سهامهم إلى

نحورهم لا يدرون ما يصنعون .. تختلّ حركتهم، ويفقدون اتزانهم، وتدور دائرة السوء عليهم.. وتدخل القسمة بين صفوفهم : بين مصدّق ومكذّب ومتردّد، ومندهش..

يجدون أنه قد فرض عليهم موقف مغاير تمامًا، وعليهم أن يعيدوا حساباتهم.

٥

والتفكير والتدبّر..

ماذا يعنى الصمت.. وكيف السبيل إلى الصيام ؟.

وما معنى الثبات.. وعدم الانهيار ؟.

ينشغلون بأنفسهم، وترميم مكيدتهم.. وتصدعها وخذلانهم..

وينجو الصالحون، ويزدادون إيمانًا وثباتًا وسكينة.

« وزكريا » عندما دعا ربه أن يجعل له آية أمدّه الله بالجواب : (آيتك ألا تكلّم الناس ثلاثة أيام).

هو أسلوبٌ للمجاهدة إذن .. وقاعدةٌ للنضال، وصياغةٌ من أجل الجهاد. نصوم أياما عن الكلام..

تطهّر وتقرّب من الله، واتصال بحبله المتين.. نسبّح له ونذكره كثيرًا، ونتعلّم من كتابه ومحبّته وعلمه العظيم..

ندعوه بأسمائه الحسنى.. فنتمثلها فى أنفسنا.. ونتزوّد منها فى التقرّب إليه؛ والمسيرة إلى النبل والنقاء والاستقامة.

نعود إلى العالم .. وقد تطهّرنا ، وتزوّدنا بفضيلة الحكمة والتأمل .. وتدرّبت جوارحنا وامتلكنا ناصية ألسنتنا .. فلا ننطق إلّا حسنًا وصدقًا وحقًا .

تدريب خلّاق على المستوى العام والخاص . قوى كامنة لدى الفرد والجماعة ..

تستطيع أن تلهم خطونا .. وترسم استقامة الطريق أمامنا ، وتحدّد العمل الصالح وجهتنا وغايتنا ..

لماذا لا نتدرّب عليه جميعًا ، ونعود خير أمة أخرجت للناس .

نحن أتى علينا حين من الدهر ، كان « الكلام » يفيض فى الأزقة والطرقات .. طوفان يغرق كلّ شىء ، ويغطى على كل الأشياء .

٦

كلام أجوف كثير .. وملق وضجيج ونفاق ..

حتى فقدت الكلمات معناها ، وكنا نعرف جميعًا أنها بضاعة بائرة .. وأنها مجرد ذرٍّ للرماد فى العيون .. يوقف الرؤية والحركة ، وحرية الإصلاح .

وشجاعة الإقدام .

لم نجرّب أبدًا ذلك الدواء الشافى والعلاج .

نصوم للرحمن يومًا أو بعض يوم عن الكلام والهتاف .

عن الجهر بالسوء .. ودوّامة التصريحات والإعلانات والوعود وفنون الخداع ، نصوم عن القول والخطب الرنانة والكلمات وبالونات التضخيم والإيهام ، نعمل ، ونتدرّب . ونصوغ أنفسنا من جديد بوسائل الرحمن .

نصوم كأفراد وإدارة وأمة ..

يكتب فى كل الدفاتر .. والأضابير .. والمنشورات ..

يفرض على كلّ مسئول الصيام عن التصاريح .. والتلويح .. وزيف الكلام .. والتبرير .. والتهوين .. ولوى الألسنة والكلمات ..

ليدع كل منّا عمله أن ينطق .. ويدلّ عليه ويبدى لنا حقيقته وأسلوبه ، وعندما تتكلم الأعمال نعرف أننا اهتدينا ، وترفعنا الأعمال .

من ديارنا وأبنائنا

الحقّ أقول لكم : هزّتنى العبارة الربانية الباهرة ، وتوقفت لدى إعجازها .. مدى ثرائها وتركيزها ، وبلاغة وسحر بيانها .

شملنى نور أخّاذ وهج ينفذ إلى القلب والعقل معًا ..

وكأنى أتلوها للمرّة الأولى جديدة تمامًا ، طازجة مازالت بعد دافئة كأننا فى أيام التنزيل الأولى .. وفى مواجهة نفس الأسباب التى اقتضت حكمته ورحمته أن ينبئنا بها .

وهكذا عندما نأخذ ما آتانا ربّنا بقوّة .. نكتشف فى كلّ مرة شيئًا جديدًا متوهّجًا ساطعًا ، فنحن أمام نبع لا ينضب .. ومعنى لا يهرم وكنز لا ينفد أبدًا ، ونور يبقى سرمدًا .

وطوبى لمن يشتغل بطاعة الله ، ويعمل عملًا صالحًا ويقول للناس حسنًا .

(قالوا وما لنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

استوقفتنى العبارة البليغة معجزة فى البيان ، وآية فى الأداء ورسم الحركة وروعة التصوير .

واه من الخروج من الديار ، والأبناء . ويا لعذاب تشريدنا .. وسبىَ أولادنا ونفينا بعيدًا عن الديار والعيال .

فما بالنا ألاّ نجاهد فى سبيل الله ، ولا نجمع على أمر بيننا أو نتوحَّد أمام المأساة !.

وحتى نرّد هوان « الخروج » ومذلّة التردّي ، وحسرة الخذلان .

ولكن هل هو جهاد فى سبيل الله حقًا ؟

كثيرون سيلقون السؤال .. وحتى يشغلنا الجدل والخلاف ندور فى دوامة الفتوى والقياس اللفظي ومدلول الاستدلال .. ربما نجد ثغرةً ننفذ منها ، ونبرر بها تقاعسنا ومرارة الإدبار والفرار .

وحسم القرآن هذه القضية :

فليس الجهاد فى سبيل الله دفاعًا عن الدين فقط .. لكن الله الخالق الرحيم جعلها أعمّ وأشمل ، أكثر اتساعًا وسعة .

فالدفاع عن النفس والأرض . والعرض ، والذود عن الحرية والكرامة كلّها - فى سبيل الله -

الدفاع عن الحقيقة بشتى الوسائل وحسن الاستعداد والعمل لهذه الغاية .. وشهادة الحق بأحقّية الناس فى أرضهم وخيراتهم وأمنهم

على الديار والعيال - كل ذلك فى سبيل الله - فلا شك أن الغاصب سيؤذى الناس فى حركة حياتهم عامة: سواء الدينية فيها أو الاجتماعية والسياسية.. يفرّق وحدة الصف بينهم، وتتمزّق الصلات والأخلاق ولا يعودون أمةً، وهو يفتنهم عن دينهم، ويسلب الثمار والعيال.

لذا فالمؤمن حقًّا لابدّ أن ينهض للدفاع عن أمّته وكرامته، بيته وقوت أولاده ومستقبل إخوة له.

وهو فى سبيل الله.

(أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)

فماذا ننتظر لنعد العدّة.. ونجعل إيقاع الحركة كلها فى مجتمعنا من أجل الوقوف بجانب الحق، وغاية استعادة الأرض والحرية، والتدريب على حسن الأداء ؟.

ابتداءً من الدرس.. إلى الزرع.. إلى الإنتاج.

عشنا ظروفًا صعبةً وأيّاماً عسيرة، ورأينا « الخروج » من الأبناء والديار - رأى العين - وجفّت حلوقنا بالمرارة والأسى. وقفنا « مصلوبين.. هكذا » على بوابة الجحيم.

لم يكن أحد منّا بعيدًا أو غائبًا؛ بل حاصرتنا جميعًا ألسنة اللهب، وفاجعة المذلة..

وحتى فيما بيننا كان يتمّ « الخروج » ونحن داخل دورنا.

فالعدوّ الغاصب لا يكتفى بالقتل والتشريد والإبادة.. إنه يفعل

ذلك ليروع الآخرين، ويحذرهم ويبذر بذور الجبن والخوف بين جنوبهم. ولكن لديه أيضًا أساليبه « الخفية » التي تليق بحضارة القرن العشرين..

أحيانًا لا يستولى الغاصب على البيوت والجدران أو يدكّها. بل هو « يستبيح الحمى » يجعلها خاضعةً له.. مثقوبة السقف والأعمدة. يحيطها بأسلاك من « الخوف ».. ينظر داخل « خصوصياتها » ويعتلى سطحها – ويهيمن على توجيه الحركة داخلها – والعبث في « جوانيتها ».

لا يخرجونك – ظاهريًا هكذا أو ماديًا – لكنهم ينالونك وأنت داخل دارك، وحولك عيالك وفى عمق الحجرات.

يأسرون أبناءك.. يعتقلونهم – أمام عينيك – وعلى مشهد منك يفرغونهم من الحب والانتماء.

يستأصلون لديهم قيم الدين، والمحبّة فى الله.

يطلقونهم « وحوشاً بريئة معذبة ».

فهل الأمر – بعد ذلك – لا يعنيك.. والخروج المهين لم يصل إلى أعتابك؟

أم أن الخطر شملنا جميعًا – كأمة – والحصار أحاط بنا.. وواجب علينا اليقظة واستنهاض الهمم، والحثّ على الشجاعة والعزم والعمل الدائب من أجل الإصلاح، وإحقاق الحقّ وإشاعة العدل والسلام..

هى قصة قوم من بنى إسرائيل - أخرجوا من ديارهم وأبعدوا عن أبنائهم. فعرفوا أن الجبن مذلّة وعار وضياع.. وأن إيثار السلامة « وحذر الموت » لا يقيهم أو يحصّنهم من ويلات العذاب.. بل هو موت أقسى وأمر ؛ إذ هو يولّد فى النفس الهزيمة والانكسار ويجلب المذلّة والهوان، ويفقدهم الحرية والكرامة والاستقلال.

« الخوف ».. والجبن.. والتردد..

موت كلّ يوم ألوف المرّات.. ويوقعهم فى تنكيل عدوّهم بهم وقهر التبعية والاستعباد.

وعلم هؤلاء القوم أن لابدّ من القتال.

واجب الدفاع عن الأهل والأرض، والشرف ضرورة - وفى القصاص حياة - القرآن لم يعيّن لنا القوم.. ولا الزمان أو المكان.. ولم يحدّد الشخصيات - ولو علم أن لنا خيرًا فى التعيين لتفضّل علينا بذلك - كما يقول شيخنا الإمام محمد عبده.

وقصص القرآن - ليست كروايات التاريخ - تذكر الموقع والعصر والأبطال، أو تعتنى بكافة التفاصيل والجزئيات.

التفاصيل ليست مهمّة، ولا تضيف شيئًا لموضع العبرة من القصّة.. بل ربما تشغل الذهن عنها، وتصرفه عن استيعاب المعنى الحقيقى من قصها. « وهو منهج حكيم فى كتابة التاريخ والمسرح علينا تعلّمه من القرآن ».

ما يهمّ هو « الحدث ».. أو الموقف وتأمل المعنى.. والحكمة

فيه .. والتوصيل إلى « لحظة التنوير » المنبعثة منه حتى نستلهم العبرة والعظة .. ونستوعب الدرس المستفاد منه ..

بعد ذلك يمكننا أن نجعل أسلوب حياتنا أنبل وأفضل ، ونقيس بمقياس الدين الظروف المحيطة بنا .. والأحداث من حولنا .

ولنعد لحال القوم الذين يخبرنا الله بنبئهم .. عندما أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ..

وعلينا التذكّر بشدّة - نحن جموع المخاطبين بالقرآن - إن تلك الأمثال إنما ضربت لنا لنتخذها مثالاً ونفيد منها ، ونطبقها على واقع حياتنا نقيمها ونعمل على غرسها داخل نفوسنا وأرضنا .. ولنحيى بها الأرض والقوم البور بيننا .

علموا إذن أن القتال ضرورةٌ . وواجب الدفاع عن الحق واسترجاع الديار والأبناء واجب ، والتمسك بفضيلة الشهامة والشجاعة مفروض ومؤكّد .. والعودة إلى الله يقتضى الإعداد للجهاد والتجهيز له وبذل الأنفس والأموال ..

ومحاربة الاستغلال والفساد جمعٌ لشتات الأمة .. وتوحيد للقلوب والطاقات .

يخبرنا القرآن أن هؤلاء القوم عندما علموا ضرورة الجهاد واستعدّوا له - طلبوا من نبىٌّ لهم وزعيم - أن يقودهم لجبهة القتال فى سبيل الله - وذكرهم بموقفهم المخزى قبل ذلك وفرارهم ، وادعائهم الحيطة والحرص - حذر الموت - وتوقّع الجبن منهم

والنكوص والفرار، لكنهم أبدوا دهشتهم وعجبهم .. أيّ سبب يدعوهم ألّا يقاتلوا ! وقد وجد سبب القتال - ويعلمون أنه أيضًا فى سبيل الله - سبب حيوىّ وخطير، لا يمكن تجاهله أو الإغضاء عنه .. أو تبرير التردّد.

أى سبب يدعوهم ألّا يناضلوا .. وقد أخرجوا من ديارهم، وفراق أبنائهم بالقوّة والقهر والاستعباد.

إن الأمم فى حاجة إلى دفع الهلاك والعدوان عليها .. والجهاد ضرورة أمام البغى والاغتصاب.

وصلوا إذن إلى هذا الاستنتاج الصحيح .. ووضحت الرؤية لديهم وأيقنوا بضرورة العودة إلى طريق الاستقامة والعزّة .. طريق الله.

ومع ذلك عندما جاءت اللحظة الحاسمة، ودارت المعركة .. فرّ كثيرٌ منهم وأدبروا، وعادوا لسيرتهم الأولى من الجبن والإحجام. وعادوا للجدال ومعارك الكلام، والمبارزة اللفظية والحجج ومقولات التبرير .. ولم تثبت إلّا فئةٌ قليلة فجاءها نصر الله.

وهكذا يعيد « الدين » تربيتنا من جديد .. ويعطينا معنى أعمّ « للجهاد » ويبيّن عقاب الأقوام التى تجبن وتتراخى .. وإمكانية النصر والغلبة للفئة القليلة المؤمنة التى تلتزم بقيم الشهامة والشرف، وتجاهد فى سبيل إعلاء كلمة الله.